سراديب الوجع

قصة الأسيرة مريم محمد نصار

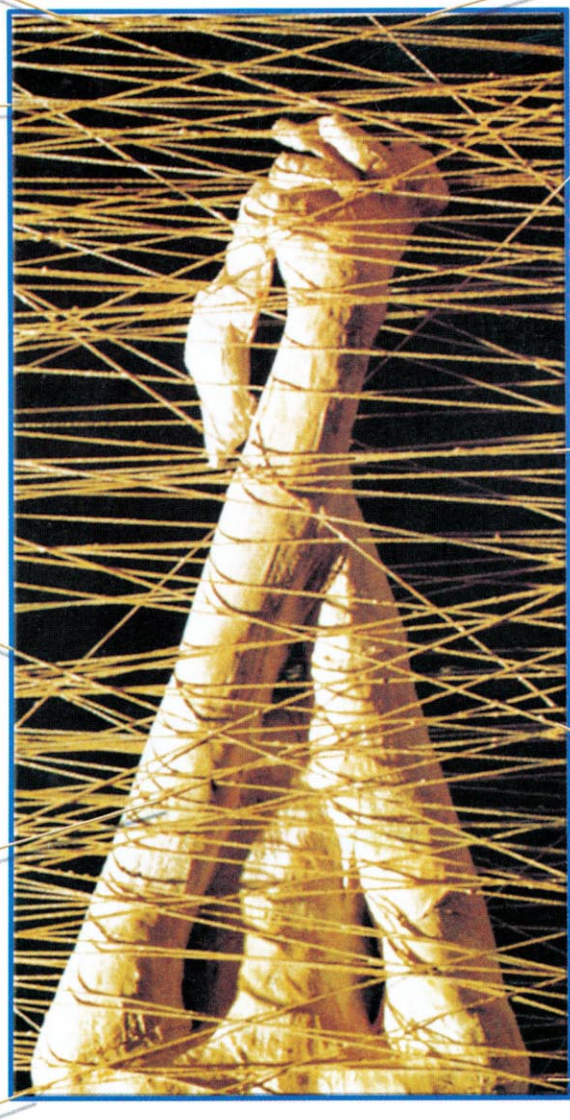

مسابقة أجمل قصة أسير

أمراء النصر و التحرير

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

سراديب الوجع

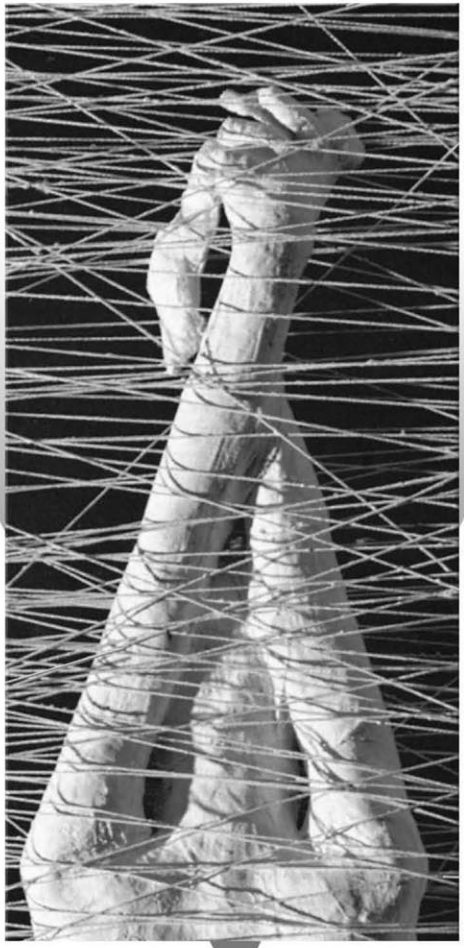

جمعية المعارف الاسلامية الثقافية

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٥٣/٢٤ . ٣٢٧/٢٥

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

بطاقة هوية

الاسم والشهرة: مريم نصار.

اســـــم الأب: محـمـد.

اســـــم الأم: نعيمة علي شهاب.

مــــواليــــد: ١٩٧٠/٥/١٨.

رقـم السجـل: ٤ بني حيان

تـاريخ الأسـر: ١٩٨٧/١٠/٢٩.

اســم السجــن: معتقل الخيام.

تهمـة الاعـتـقـال: إخـفـاء مـعـلومـات، والاحـتـفـاظ بسلاح وأجهزة للمقاومة الإسلامية.

تـاريخ التحـرر: ١٩٩١,/٠٩/١١

سـبب التحـرر: تبـادل معلومـات بـين حـزب الله والكيـان الصهـيوني عن جـثـتين لصهيونيين مفقودين.

بسم الله الرحمن الرحيم

ثمّة آلام في هذه الدنيا
أكبر من الوجع..
ثمّة أحزان أكبر من الدمع...

الإهداء

إلى كُلّ مَنْ
سُجِنَ بِدَمْعَةِ حُزْنٍ،
وَحَمَلَ جِرَاحَهُ رَايَةَ حُرِّيَة

نسرين

الفصل الأول

دائرة الضياع

عندما يأتي الليل كانسحاب من ضجيج النهار، يقلني زورقه التائه في سراديب الذكريات إلى معابر الجروح الأليمة.. ولكلٍ منّا ذكرياته.

ثمة من تأتيه الذكرى في أوقات مختلفة من الليل والنهار. وثمة من تحركه المشاهدات والسكنات لتواكبه الذكرى على حين غرّة. وأسأل نفسي، وأنا ألقي برأسي على وسادة الأرق: هل سيأتي يومٌ وتصبح تلك الأيام التي ولّت بزمانها ومكانها ذكريات مجففة في زهرية من الوقت الضائع؟! هل ستصبح مجرد أحاسيس مسبوقةٍ بالفعل الماضي؟! لستُ أدري. ولكن ما أعرفه تماماً، وما أحسّه، أن الذكريات تسكنني، تعيش في داخلي حياةً لا يعتريها يباس، أعيش أيامها وأشعر بأوجاعها، ويعذبني القلق المتعرش في أعصابي ودمي، والخوف اللامع في عيني. أغمض عيني في محاولة

يائسة لنوم هادئ.. أشعر بيد أمي ترد غطائي عليّ خوفاً من البرد، تتحسسني برفق شديد قبل أن تأوي إلى فراشها، كمن يتفقد أشياءه الثمينة خوفاً عليها من السرقة، أسمعها تحمد الله، فيبقى صوتها صدىً في فؤادي «الحمد لله»..

لو كانت أمي تدري كم حلمت أن ترد الغطاء عليّ.. أن أضع رأسي على صدرها وأغفو كطفلٍ صغير على حديٍّ رقيق عذب عذوبة المياه الصافية... لو تدري أمي «أيّ دفء أحتاج، وأيّ صقيع أنا..».

بين معتقل الخيام وهنا، بين نفسي ونفسي، أعيش الغياب ـ الحضور، فأي تباعد بين المسافتين وأي ضياع؟!

تنقضي الساعات الأولى من الليل في قطارٍ من الوقت البطيء، أتمشى في غرف البيت

أنظر: أمي.. أختي «خديجة».. أخي «عباس»، والنوم على جفونهم تهدهده أراجيح الأحلام...

اقترب من «خديجة»، أمسح على رأسها برفق.. أتأكد من ملامحها: «لقد كَبُرَت.. حين أخذني اليهود وعملاؤهم إلى معتقل الخيام كانت لا تزال صغيرة، أصبحت شابة الآن، و«عباس» أيضاً تبدو الرجولة على تقاسيم وجهه، صقلته الحياة باكراً هذا الفتى، عرف قساوتها فحاربها بها، ورث العزيمة من أبي بلا شك».

آهٍ.. يا إلهي ما أبعد المسافة بين الزمانين والمكانين!

خارج المعتقل: كل يوم تتجدد فيه الحياة تحسب من عمرك وسنينك.. خارج المعتقل تضحك وأنت تعلم سبب سعادتك، وتحزن وتعرف سبب حزنك..

أما في معتقل الخيام ؛ فأنت في دائرة من الضياع المختزلة من الزمان والمكان، دائرة تختزن كل أنواع المرارة والألم والوحدة..

هناك تعيش المعاناة لتصبحها !!

.. ويمكن القول ؛ إنه في معتقل الخيام قد يتكسر كل شيءٍ في نفسك ويتشظى، إلا شيئاً واحداً، هو أنتَ.. قد تخسر كل شيء سوى ذاتك المصقولة بحب الله والاخلاص له، تبقى لله ولك..

وفي معتقل الخيام، تجد التشوه يأكل أحلامك والواقع... إلا عنفوانك يكبر مع صِغَرِ المساحات وضيقها، ويتعرش من الكوات الصغيرة ليمتد عالياً نحو السماء..

«إن أخصب أرضٍ تنبت الطاهرين قلوباً حُرّة مقيدة بالسلاسل..».

أعود إلى فراشي، أبعد الغطاء عني، عساني

أجد معنًى لبردي.. من الصعب جداً أن يحويك المكان الذي غادرته روحك.. ومن الصعب أن تجد نفسك سائراً نحو بقعةٍ كان حلمك الخروج منها، ولما غادرتها وجدتها تسكنك.. فأي سجنٍ أضيق:

معتقل الخيام بعذاباته ومراراته؟!

أم الحرية المقيّدة بالذكريات؟!

وأيّ كلمات هي سطور الحقيقة؟ وكلما همت بكتابة حرف، صارت الكلمة سجناً والنقاط قيوداً والسطور سياط تعذيب!

وأين المفر من صُوَرٍ أخالها ترتسم عل جدران حياتي، وأصوات ترافق نبض فؤادي، وكلما تكررت، كان طعم القهر جديداً. هل حقاً أن ثمة جراحاً لا يبرئها الزمن بل يزيدها طراوة واتساعاً؟!

كلما أطبقتُ جفني، تعلّقت يدي بالفراغ

لتمزّقه، وكأنني ما زلت أتمسك بتيك الكوة الصغيرة في سجن الخيام..

وأعاود الوقوف مرة أخرى، ككل ليلة، على شرفة تطل على الماضي الذي شرّد المستقبل في دروبه..

تلك الأيام.. هذه الأيام.. بكل قساوتها فصولاً تتابع في كتاب حياتي.. وأول ما يستقر عليه الخيال موضع رصاصتين شوهتا الباب الرئيسي لمنزل شقيقي الشيخ علي في القرية.. رصاصتان قتل بهما اليهود والدي..

في ذلك النهار، يوم ١٩٨٧/١/٥، كنت عند عمتي في قرية «قبريخا» المحررة، عندما جاءت بعض النسوة من القرية لتخبرنا أن والدي قُتِل، حينها رحت أركض من غير وعي في الوادي الفاصل بين «قبريخا» و«بني حيان»، وقلبي يسابق خطواتي، وفي ذهني تتردد أفكار وأسئلة

بلا أجوبة.. «يا الله ؛ هل مات أبي فعلاً؟! ذاك الطود الشامخ المفعم بالحياة والعطاء، هل غطى السكون وجهه وأطبق الصمت على شفاهه وسلّم الروح إلى بارئها؟! آن لوالدي أن يستريح من عناء العمر بعد سنوات مضنية من العمل والكفاح، لكن ما لم يخطر ببالي أبداً أن يكون الموت هو السبيل لتهدئة روح الحماسة المتأججة في نفسه..».

كان الإسرائيليون وعملاؤهم قد جاؤوا إلى منزلنا لاعتقال أخي الشيخ علي إثر عملية قامت بها المقاومة الإسلامية ، وذلك بتهمة التعامل مع المقاومين ومساعدتهم في تنفيذ الخطط. ولكن الشيخ نزل إلى بيروت قبل ذلك، ولما خرج والدي ليستوضح سبب محاصرة البيت، أطلقوا النار عليه فقتلوه..

أبصرتُ من بعيد أهل القرية يجتمعون أمام

دارنا، يبكون وينتحبون، وما إن وصلتُ حتى نادت إحدى النسوة: «قم يا أبا طالب، وصلت حبيبة قلبك مريم»، وأطل والدي أمام ناظريّ جثة هامدة والدم لوّن سحنته السمراء..

«أجل يا أبتاه، أتيت أسلّم عليك، فقم. أم تراه جاء اليوم الذي أناديك فيه فلا تجيبني؟! أتيت إليك لأشعر بدفء حنانك، لأستظلّ بظلّك، فهلاّ آويتني إلى حضنك؟!».

وبقي السكوت هو الجواب الوحيد والدموع مناديل وداع..

مات والدي ؛ وماتت معه أيام الأمان، فاليهود وعملاؤهم زرعوا دروبنا بالترهيب والتنكيل ظناً منهم أنّ الخوف سيرتدينا، ناسين أنّ الظلم جند من جنود الحق، ودافع للثورة والنضال..

مات والدي الذي علّمني كل شيء في

الحياة، أنهى حياته البسيطة المتواضعة العابقة برضا الله وخدمة الناس بهدوء.. فقيراً كان «أبو طالب»، لكنه عزيز النفس، وعزة النفس هي أكثر ما زرعه فينا.. رحل وبقيت إرشاداته منارة لطريقنا، فرحنا نعمل بجدٍّ ونشاط في حقلنا معتمدين على الله وعلى أنفسنا، فإذا ما بزغ الفجر، مشيت و«عباس» و«خديجة» لنوافي الخيرات في أرضنا، فقبل وفاة والدي بسنوات، غادر جميع أخوتي القرية كغيرهم من الشباب في جميع القرى الجنوبية المحتلة، هرباً من التجنيد الإجباري في جيش لحد، ومن معتقل الخيام..

كنّا نعمل بلا ملل وكلل، على الرغم من أن الشتول كانت في بعض الأحيان أطول منّا، وطائرات الاستطلاع الإسرائيلية تحلّق على علو منخفض فوق رؤوسنا. حصدنا ما زرعه أبي،

وهو الذي كان يقول لي عندما يبذر أيّ حبة في التراب: «يدري مين يعيش، يدري مين يلمّ..»، فبَذر وحصدنا..

في أحد الأيام، كنتُ وأبي (رحمه الله) نعمل في الحقل عندما جاءت دورية اسرائيلية مفاجئة إلى القرية ومرت بالقرب منّا، ولما رحلت وجد أبي «طاسة» نسِيَها أحد اليهود على حافة الطريق، فخبأها في كيس أسود، وطلب إليّ أن آخذها إلى البيت. عندما سألته عن سبب ذلك، اكتفى بابتسامة عريضة، ألهبت الفضول في نفسي، خصوصاً، وأني لاحظت أنه يقوم بالبحث وراء كل دورية ليجمع أي شيء من مخلفاتها ويحتفظ بها.. إلى أن قال لي ذات مرة : «يا ابنتي، شباب المقاومة يحتاجون لأي شيء تتركه الدوريات المفاجئة، وقد تنفعهم هذه المخلفات في عملهم..».

ولم ينته الفضول عندي بمعرفة ما قد يحتاج إليه شباب المقاومة، وأنا التي كنتُ أرسم وجوههم بخيالي بين سنابل القمح، وأحلم أن يرتسم ظلهم على وجودي عند انعكاس الشمس. وكثيراً ما كنت ورفيقاتي نتحدث عنهم، ونتساءل عن مدى العذابات التي يلاقونها وهم يقومون بالأعمال الجهادية، كيف تراهم يأكلون؟ كيف ينامون في البراري؟ كيف يختزلون فصول السنة بفصل واحد، هو فصل الجهاد، فلا يثنيهم قرّ ولا حرّ عن إنزال أقسى الخسائر في العدو الإسرائيلي وعملائه؟..

تلك الأحاديث، كنّا نتناقلها بهمسٍ بين بعضنا البعض، ونخبئها أحلاماً تحت أهدابنا المتيقظة للغدر والخيانة من الذين يبيعون كل شيء لأجل حفنة من الدراهم، وما كنّا نتحدث عنه أيضاً هول العذاب الذي يلاقيه من يؤخذ

إلى معتقل الخيام، ذاك المعتقل المليء بشتّى أنواع العذاب والقهر، فكنا ندعو الله أن يفرّج عن ساكنيه، ويخفف عنهم عذاباته، وتقشعر أبداننا من ذكر اسمه، وننتظر إذا ما كانت دوريات مفاجئة آتية لتأسر شابّاً أو فتاة.. فالذهاب إلى معتقل الخيام، كان هاجساً مرعباً يراود جميع من في الشريط الحدودي، حتى العملاء منهم، فما ينالونه من عقابٍ إثر أي خطأ صغير، لا يختلف عن عذاب الآخرين..

❖❖❖❖❖

كانت الأيام تنقضي، متشابهة، ويكفي أن الحزن الذي خلّفه رحيل والدي كان يكبر يوماً بعد يوم.

تسعة أشهر مرت على استشهاد والدي، ولم أصدق انه لن يعود إلينا يوماً، وكأن الأيام كانت ساعات انتظار لرجلٍ لن يأتي...

في عصر يوم ١٩٨٧/١٠/٢٩، وبينما كنتُ أهيئ طعام الإفطار لي ولأهلي، بعد يوم صيام قربةً إلى الله تعالى ، جاءت دورية لحدية ترافقها آليات عسكرية حاصرت البلدة، وتوجه المسؤول الأمني «نصري نهرا»[1] بسيارته المرسيدس إلى منزلنا..

دخل ومرافقوه الدار من الباب الخلفي، وفتحت «خديجة»، التي لم يكن يتجاوز عمرها ثلاثة عشر عاماً، لهم الباب. سألها «نصري نهرا» عنّي، فتوجّهت إليّ لتناديني، إلا أنه تبعها، وتفاجأت به يقف خلفها مباشرةً..

- أنتِ مريم؟

- نعم..

- أريد أن أتحدث إليكِ قليلاً.

(١) نصري نهرا: مسؤول أمني في الميليشيات المتعاملة مع العدو الإسرائيلي، صُرع على أيدي رجال المقاومة الإسلامية.

وأخذني إلى مكان لا يسمعنا فيه أحد..

ـ نريدك لخمس دقائق يا مريم، لذا سلمينا السلاح والجهاز اللذين بحوزتكِ..

ـ أنا لا املك شيئاً، وهذا البيت أمامك، فتش ما شئت، فلن تجد شيئاً..

نادى أحد جنوده، وطلب إليه أن يأخذني إلى سيارة متوقفة في وسط البلدة قرب الجامع، وتناهى إلى سمعي صوت والدتي وهي تقول لـ«نصري نهرا»:

ـ «دعوها إنها صائمة..».

في هذه الأثناء قام «نصري نهرا «وجنوده بتفتيش البيت وقلبوه رأساً على عقب..

جلست في السيارة مع السائق، وسألته:

ـ ماذا تريدون مني؟

ـ لا أعرف، أنا عبدٌ مأمور، ولا أعرف أي شيء عن هذه المهمة..

ـ كلكم تقولون هذا، وأنتم تعرفون المسائل الصغيرة قبل الكبيرة...

قبل يومين من مداهمة منزلنا ، كانوا قد اعتقلوا رفيقتي في القرية «مريم جابر»، وأخذوها إلى معتقل الخيام، ولم يسمع أحد أخباراً عنها، هذا ما جعلني أشعر أن الدقائق الخمس قد تطول ساعاتٍ، بل ربما أياماً...

كنتُ أعرف أنهم لم يأتوا لأجلي فقط، بل أيضاً لأعتقال أخي «عباس«الذي صادف وجوده في بيروت لقضاء أسبوع مع أخوتي، فقد قام «نصري نهرا» أمامي بالبحث في الأوراق الخاصة بعباس، الذي كان قد تابع دروسه الدينية عند أخي الشيخ علي أثناء وجود الأخير في القرية، ولكن بعد نزول الشيخ إلى بيروت، انحصرت اهتمامات عباس بالعمل فقط، وكم كانت دهشة «نصري نهرا» وجنوده

كبيرة حين عرفوا أن «عباس» الذي أتوا لإعتقاله لا يتجاوز عمره الحادية عشرة سنة..

بينما أنا أجلس في السيارة، رُفع أذان المغرب، وما هي إلا دقائق حتى وصل «نصري نهرا» وجنوده. فأجلس ثلاثة عملاء في المقعد الخلفي من السيارة، وأجلسني بينه وبين السائق في المقعد الأمامي.. وما إن انطلقت السيارة بنا نحو «مركبا»، حتى شعرت بأن قلبي يكاد يتوقف، وأنا أنظر بعيني الخائفتين إلى بيوت قريتنا القديمة التي كان أهلها ينظرون من خلف نوافذها بوجل إلى السيارات والآليات، وكل واحد منهم يخشى أن يأتي دوره غداً.. أو حتى بعد لحظات..

غابت البيوت عن ناظريّ شيئاً فشيئاً، وساد صمتٌ مخيف، فكنت أشعر أن أنفاسي وحتى دقات قلبي فيها مراقبة!

وصلنا إلى «مركبا» في أقل من ربع ساعة، وهناك، نزلت من السيارة وجلست في المقعد الخلفي، وبقي معي المسؤول الأمني والسائق فقط...

قال لي «نصري نهرا»: سنأخذك إلى الخيام، لذا أنصحك من الآن أن تقولي لي كل ما عندك..

- ولكني لا أعرف شيئاً..

فبدأ يمطرني بوابل من الأسئلة الشخصية عني، وعن إخوتي، وعن نوعية الدروس التي نتلقّاها في الحسينية، وعن صلاة الجماعة التي نقيمها كل نهار جمعة، ودعاء كميل، وشدد على معرفة الأحاديث التي ينقلها إلينا علماء الدين..

أجبته: إن الدروس هي مجرد دروس دينية في الفقه والسيرة، وأن جميع بنات القرية يحضرنها..

فأجاب بسخرية: دروس دينية أم حجة لتلتقوا وتتحدثوا في الأمور السياسية وأعمال المقاومة، ألا يقوم علماء الدين بتحريضكم علينا؟!

ثم راح يحدثني بأحاديث تحطّ من قيمة المحجبات، وأن أكثر الفتيات اللاتي رافقهن كنّ محجبات، حتى أن هناك امرأة ترتدي العباءة كانت على علاقة معه..

فقلت له باطمئنان كامل: اسمع، هناك الكثير من الناس المدسوسين الذين يعملون على تشويه سمعة مجموعة معينة مقابل المال، وإذا كانت أصابع يديك متشابهة، عندئذٍ فقط، تكون جميع المحجبات متشابهات..

كانت السيارة تسير بنا، وهو يطلب إليّ أن أعترف بكل شيء، وجوابي الوحيد «أنا لا أعرف شيئاً».

وصلنا إلى بوابة معتقل الخيام، أدار رأسه قائلاً لي:

ـ إذا دخلتِ إلى هنا قد لا تخرجين، فلماذا لا توفرين على نفسك العذاب وتعترفين لي بكل شيء، عندها أعدكِ بأني سأعيدكِ إلى منزلك وأعتذر لك ولأهلك أمام أهل البلدة كلهم.. اسمعي يا مريم، أنت لا تزالين بعمر الورد، وجميلة، العمر أمامك طويل، فلا تضيّعي سنين عمرك بين هذه الجدران...

ـ أنا أنصع بياضاً من الثلج، وأعرف نفسي جيداً، لذا أقول لك: أنا لا أعرف شيئاً..

– حسنٌ، سأعود بعد يومين إلى هنا لأسأل عنكِ، وإذا لم تعترفي، أعدكِ يا مريم، سأكون أول من يعذبك...

الفصل الثاني

في الزوايا المُظلمة

طلب المسؤول الأمني إلى الشرطيتين أن تأخذاني إلى الداخل، وأن يجلبا لي طعاماً لأني صائمة، فضحكتا باستهزاء شديد عليّ، ونظرتا إليّ نظرة استهزاءٍ وسخريّة. قادتاني إلى الداخل، حيث تقومان عادةً بتفتيش المعتقلات، وجردتاني من كل ما أملك.

سألتني إحداهما إن كنت أريد تناول الطعام، فأجبت بالنفي خوفاً من أن تضعا لي شيئاً فيه، فجلبت لي علبة فيها ماء ووضعتها أمامي..

بعد ذلك جاءت شرطية وكبلت يديّ بالأصفاد الحديدية، ثم وضعت رأسي في كيسٍ أسود من قماش، كريه الرائحة، وعصبت عينيّ فوق الكيس، وأخذتني إلى غرفة التحقيق وهي تنهرني وتصرخ بوجهي كي أسرع الخطى التي بطؤت لعدم معرفتي بالطريق، فكنت أستعين بمصدر صوتها حتى أعرف وجهتي..

في غرفة التحقيق رفع المحقق الكيس عن رأسي، وجلس أمامي،، وبدأ بتدوين المعلومات الشخصية في ملفي، وهو ما يسمى بـ«فتح ملف»، وانتقل من الأسئلة الشخصية إلى الأسئلة العامة، ثم بدأ يسألني عمن أسماهم «مخربين» في بيروت والجنوب..

كنت أجيبه بأني لا أعرف أحداً، ولا أعرف ما هي التهمة الموجهة إليّ.. وهو يعاود الأسئلة، وينتقل من سؤال إلى سؤال بلا كلل أو ملل..

بقيت حتى الساعة الثانية ليلاً في غرفة التحقيق، ثم جاءت شرطية وقادتني إلى غرفة، جدرانها مليئة بالعناكب، متسخة الأرض، نتنة الرائحة.. وما إن أوصدت الشرطية الباب الحديدي حتى انتابني شعور عارم بالوحدة والخوف. أغمضت جفنيّ متمنية أن تكون الساعات التي مرت مجرد كابوسٍ مريع، لكن

ما إن فتحتهما حتى أبصرت واقعاً لا مفر منه..

قضيت ليلتي الأولى في معتقل الخيام، وأنا ارتجف من البرد، وأقاسي الجوع والعطش، وأعد الثواني ليبزغ الفجر، عسى نور النهار يمحو قسوة الظلام عن وجهي...

في الساعة الثامنة صباحاً، جاءت الشرطية وطلبت إليّ أن أنظف الغرفة، فنظفتها. وبينما أنا جالسة، سمعت صوت وقوع الأصفاد من يد الشرطية التي جاءت تقودني إلى غرفة التحقيق أمام باب الزنزانة، فتردد صداه في فؤادي خوفاً ورعباً. ومن غير أن أتناول أي شيء من طعام أو شراب، أخذت إلى غرفة التحقيق بالطريقة نفسها التي أخذت فيها ليلاً، الكيس الأسود في رأسي، والعصبة على عيني، والأصفاد في يدي..

رُكِّعت على الأرض، وبدأ المحقق أسئلته كالعادة بالمعلومات الشخصية، وفجأة صرخ بي: ألا تريدين أن تعترفي؟

أجبته: أنا لا أعرف شيئاً حتى أعترف به...

ولم أكد أنهي كلمتي حتى ركلني على ظهري، فوقعت على وجهي، وراح يركلني بحذائه العسكري وهو يصرخ: نحن نعرف كل شيء عنكِ، أنت تخبئين أسلحة للمقاومة، ولديك جهاز في المنزل، وتساعدين في نقل الصواريخ للمقاومة.. هيا اعترفي بذلك..

بقيت مدة خمس ساعات، بين ضربٍ وركلٍ وأسئلة واستجواب وتلفيق تهم، وكلما قلت له إني لا أعرف شيئاً زاد ضربه لي.. وصادف أن جاء مسؤولون إسرائيليون إلى المعتقل، وعادة يجتمعون مع العملاء في الغرفة التي كنت أضرب بها، فجاءت الشرطية وقيّدتني

وأخذتني إلى حمامٍ فيه مغسلة تتقّط المياه منها وتتجمع على الأرض لتصبح آسنة، ما يجعل المرء يتقيأ من الرائحة المقرفة التي تفوح من جوانبه.

بقيت راكعة هناك لمدة ثلاث ساعات، جاءت خلالها الشرطية بالطّعام، فلم آكل شيئاً، أولاً: لوجودي في مكان مقرف، ثانياً: لأنني بقيت مقيدة بالأصفاد..

بعد رحيل المسؤولين الإسرائيليين، أعادوني ثانية إلى غرفة التحقيق، وسألوني الأسئلة ذاتها، وعندما أصبحت الساعة الرابعة أنصرف جميع المحققون على أن يأتي المحققان المناوبان ليلاً ؛ فهناك أحد عشر محققاً مع مسؤولهم، فإذا تعب محقق من ضرب معتقل واستجوابه، نادى زميله ليكمل عنه..أخذتني الشرطية إلى غرفة، وعندما أقفلت عليّ الباب الحديدي،

تيممت وصليت، ولم أكن حينها أعرف الحكم الشرعي لعدم معرفة القبلة، فصليت باتجاه، علمت فيما بعد أنه الاتجاه الصحيح للقبلة.

في الساعة السادسة مساءً، أعادوني إلى غرفة التحقيق، كانت رائحة الخمر تفوح من أرجائها، رفع المحقق الكيس الأسود عن وجهي، فرأيته يشرب الخمرة ويأكل البطاطا والمكسرات..

قال لي: لم تأكلي بعد؟!

- لا أريد أن آكل..

- اسمعي يا مريم، أنصحك بأن تعترفي بكل شيء، فهنا في معتقل الخيام، ليس هنالك من أحد قربك، لا أب ولا أم ولا شقيق، لِذا أطلب إليك أن تعتبريني أباً، أو أخاً، أو حتى صديق، وأعترفي لي بما كنت تقومين به، فتعودين إلى أهلك..

في هذه الأثناء كانت «مريم جابر «رفيقتي في غرفة التحقيق المجاورة تتعرض لأشد أنواع التعذيب..

وتابع المحقق نصيحته لي:

ـ ابنة بلدك «مريم جابر «اعترفت بكل شيء، وهي الآن بين أهلها وأخوتها في البيت معززة مكرمة..

ولم يكد ينهي حديثه حتى صرخت مريم من الغرفة الثانية صرخة ألم شديد.

فقلت له: هذا صوت مريم ؛ إنها تتعذب!

أجابني بنبرة لؤم: مريم ليست هنا.

ـ ولكني أعرف صوتها جيداً..

فصرخ بوجهي: قلت لك إنها ليست هنا.. وغادر الغرفة مسرعاً..

سمعتُ خلفي صوت أقدام ضخمة، فلم أجرؤ على الالتفات، وامتدت يد دفعتني إلى

الأرض، ومزّق صوته أذني وهو يصرخ: ضعي رأسك في الكيس.

وما إن فعلت ذلك حتى قال لي: لا تريدين الاعتراف، حسناً.. وبدأ بضربي بحذائه العسكري، وبيديه، وإذا ما علا صوتي وقلتُ: «آهٍ، يا أبي»، سخر مني قائلاً: «سنلحقكِ به قريباً»، وإن ناديت: «آهٍ، يا أمي»، أجابني: «سنأتيك بها إلى هنا».

بقي يعذبني حتى منتصف الليل، أخذوني إلى الغرفة وأنا بالكاد أستطيع أن أقف على قدمي، فلم أعد أشعر بجسدي من كثرة الأوجاع، وقد تلقيت ضربة على أذني اليمنى، ما جعلني أفقد السمع بها نهائياً طوال وجودي في المعتقل.

ارتميت على فراشٍ رقيق جداً، وقد وهن جسدي من عدم الطعام والشراب وكثرة

الضرب، ولم أعرف كيف قضيت ليلتي التي خلتها لن تنتهي..

في الصباح وبعد أن نظفت الغرفة، سمعتُ صوت معتقلات أخريات يتحادثن عبر الشبابيك، فاطمأن قلبي، وعرفت أني أستطيع أن آكل من الطعام الذي يقدمونه، فجاءت الشرطية لي بفطور، عبارة عن جبنة إسرائيلية وكوب من الشاي البارد.

عندما وصل المحققون، أخذوني مباشرة إلى غرفة التحقيق بالأسلوب نفسه، رُكِّعت على الأرض وراح المحقق الموكل إليه مهمة استجوابي، يعيد الأسئلة نفسها، وأعيد الجواب ذاته: «هناك عليك أن تتكلم، ولكن يجب أن تختار بدقة ما تقوله، وما تريد أن تعّرفهم به، فهم مهما قالوا لك إنهم يعرفون الكثير عنك، حتى عدد أنفاسك، ومهما واجهوك بحقائق،

وبأكاذيب، وحدك أنت الذي تعطيهم معلومات أو تضللهم.. اعترف بأي شيء لا يضر، واذكر أسماء بعيدة جداً عن الشريط المحتل، أسماء ماتت أو استشهدت، ولا تسوّل لك نفسك أن تذكر أحداً، فوحدك أنتَ من يملك المعلومات».

هذا هو الدرس الذي لقنته لنفسي في اللحظات الأولى لبداية التحقيق معي، ففي كل الأحوال سأضرب، وسأتعرض لأبشع أنواع التعذيب، وإن كانت أقدامهم توجع جسدي وتترك عليه آثاراً زرقاء، فإن نفسي كانت مطمئنة مرتاحة، فما يتحمله الجسد، لا يستطيع أن يتحمله القلب..

كانت الدموع نقاباً لوجهي، والضياع في سراديب الوجع مسيرة أحاسيسي المشردة خارج حدود الألم، عندما قال لي المحقق عمّن وشى بي.. شتمني و زاد في ضربي، وأخبرني

عمّا ورد في تقرير عني، وأنا لا املك سوى بسمةٍ مدفونةٍ تحت شفتي، تدغدغ الاستهزاء بحديثه الكاذب، ولا أسمع سوى صدى نبضات قلبي تخبرني أني ما زلت على قيد الحياة!

في معتقل الخيام، لا تصدّق عينيك أو أذنيك، فالصورة المشهدية والأكاذيب المنسوجة من خيوط الواقع، سياطٌ قد لا تترك آثارها على جسدك، ولكنها كفيلة بأن تحطّمك من الداخل.. أن تفقدك التوازن، وتبتر في نفسك الثقة تجاه أي أحدٍ قد يوهموك أنه وشى بك..

في معتقل الخيام صدّق قلبك فقط، فإن الحواس بوصلة القلب في يمٍّ من ضبابية الحقائق، وهي وحدها التي توصلك إلى الوضوح..

كنت أُضرب، ويتناهى إلى سمعي صراخ شاب في غرفة أخرى يتعذب ويصرخ مثلي،

ويجرحني صوته الطالع من صدرٍ هو أطهر الأماكن وأقدسها، ويقول لي المحقق ليزيد من عذابي «هذا أخوك الذي تسمعين صوته»، وأعرف أنهم يقولون له إني أخته ليجبروه على الاعتراف، لكنهم جهلوا أنه إن كان أخي ابن أمي وأبي، أو لم يكن، فهو ابن ديني، ووطني، وما يجرحه، يؤذيني، وليس بالضرورة أن يكون ابن الرحم ذاته الذي أنجبني حتى أتمنى أن أنال الضرب عوضاً عنه، فعزيز عليّ أن أسمع، أو أرى شاباً في مقتبل عمره، يُضرب ويُهان، وهو ابن بلدي..

بعد ساعات من الضرب، أوصل المحقق أسلاك الكهرباء بسبابتيَّ، وراح يرفع التيار الكهربائي شيئاً فشيئاً، حتى يزداد صراخي، وبين «يا الله ساعدني»، و«يا ربي دخلك»، شعرت بأني فقدت وعيي تقريباً، ولم أعد أركز

على أي شيء، وهذا ما يساعدهم على أخذ الكثير من المعلومات، ولكن جوابي كان واضحاً: لا أعرف شيئاً..

بعد الكهرباء، سحبني المحقق إلى المغسلة، حيث فتح المياه الباردة جدّاً على يدي، فتلويت ألما، وأحسست بأنه بتر كفيّ من ساعديّ، ثم قام برميي على الأرض، وحمل قدميّ، ليضربني المحقق الثاني بالسياط على قدمي من الجهتين، وبقي يضربني حتى ضاعت كل أوجاعي، بين دموع وصراخ..

مرّ النهار، ولم تمر دقيقة بلا تعذيب. انتهى دوام المحقِّقَيْن، فتركاني لآخرَيْن، ومباشرة دخلا عليّ، وقال لي أحدهما: لم تعترفي بعدُ، الآن سنأتي لك برجلٍ لم يرَ النساء منذ عشر سنوات، وسنتركه معك ليسليك، فما رأيك؟! وراحا يضحكان ويستهزئان بأوجاعي، وكأني

أمامهما لا شيء، قم قاما بسحبي إلى الخارج حيث الهواء القارس والمطر الغزير، وكانت الرياح تكاد تقتلع الجدران، خصوصاً وأن معتقل الخيام قريب جداً من جبل الشيخ الذي لا تفارقه الثلوج طوال السنة. أوقفوني ساعاتٍ طويلة إلى الحائط ويداي مرفوعتان إلى الأعلى، ثم قاموا بصبّ دلو من المياه الباردة عليّ.. وكل عشر دقائق أو ربع ساعة، يأتي محقق ويصب عليّ دلو ماء، حتى ظننت أني فارقت الحياة لأني لم أعد أشعر بشيء من البرد..

بقيتُ واقفةً إلى الحائط حتى ساعة متأخرة من الليل، وثيابي مبللة، والمطر يتساقط بغزارة.. تخيلت؛ لو أن والدي جاء الآن ورآني على هذه الحالة، فأيهما أشد قسوة على فؤاده؛ موته أم عذابي؟ تخيلتُ، لو أنه يأتي على

ومـيض البـرق، يخـبـئني بين أضلعـه، يعطيني دفـئـه، يغـمـرني بحنانه الذي أحـتـاج.. لـو يأتي أبي، يأخـذنـي إليـه، حـتى الموت أهـون من هذا، هناك أنت بين يدي الله الرحـيم، وأنت هـنا بين أيدٍ لا تعـرف الله.. ثمّـة آلام في هذه الدنيـا أقسى بكثيـر من الموت.. ثمّة رحيل أعـمق من كلمة «موت»..

أمطرت السـمـاء.. رعدت وبـرقت.. ولمَّ يأتِ والدي.. وبقـيت واقـفـة إلـى الحـائط حـتى جـاء المحقق ليسحبني من جديد إلى مشهد آخر من مشاهد التعذيب..

قضيت الليلة بثيابٍ مبللة، أجلس على نفس الفـراش الرقـيق، وليس لي وسـادة سـوى كفيّ.. وبين عويل رياح الشتاء وصراخ المطر، ليل طويل إخاله لن ينتهي، وحدي في تلك الغرفة الباردة، وقد شرعت أحاسيسي نوافذ جوارحها للصراخ

والعويل حتى أصبحتُ المطر والصقيع.. لا الرعد أقوى مما يضج في نفسي، ولا وميض البرق يضيء شيئاً من سواد الوحشة القابعة حولي.. ووجدتُ نفسي بين جدران لم تشهد سوى عذابات الّذين مروا قبلي.. تحسستُ جسدي المنقوش عليه شتّى ألوان العذاب، فليس هنالك من أحد ليخفف عني سوى نفسي، فأتمتم بالحمد لله دوماً، وأشكر الله، على ما تحمّلت من مصاعب، وأسأله أن يؤازرني في محنتي فليس لي سواه...

ونظرتُ إلى الله لتشخص عيناي إلى رحمته تعالى، يرنو قلبي إليه فأنسى ما مرّ في النهار السقيم.. أقترب أكثر، ألمح دروب الشوق إليه محفوفة بالبلاء،فلستُ سوى فرد في ركب من العاشقين الوالهين إليه.. أدنو أكثر، فأغمض عيني عن سجني، لأبصر دنيا واسعة، ترتفع

فيها قبضات الأبطال عالياً، وأسمع صراخي ضغطة زنادٍ في يد مقاوم، يحمل الموت بين جنبيه ليهديه حياةً لنا وللمعذبين في الأرض. مجاهد جعل من جسده راية في دروب التمهيد لظهور الحجة ﷺ، ما أرحب سجن الخيام، الذي يحوي بين جدرانه أسوداً وأبطالاً، وما أضيق تلك النفوس التي باعت نفسها لتكون حرساً لتحرم تلك الأسود حريتها، وما فطنت أبداً، أن أسخف السجون، تلك القضبان التي تحبس الجسد...

بعد أحد عشر يوماً من التحقيق والعذاب المستمرين، سجنوني في زنزانة إفرادية صغيرة لمدة عشرة أيام، بعدها ألحقوني بزميلاتي المعتقلات اللاتي لم ألتق بواحدة منهن طوال فترة التحقيق..

حدّثتُ نفسي وأنا أسير خلف الشرطية عمّا

يمكن أن ألاقيه بعد أن أقيم في غرفة مليئة بفتيات لا أعرفهن، ولكني سرت في سراديب المعتقل الضيقة، لأقف أمام باب حديدي مقفل، تحمل الشرطية مفتاحه، وسرعان ما تفتح به الباب، ليرفع ستار جديد من مشاهد وجودي في معتقل الخيام، وليمتلئ دفتر الذكريات بأسماء حفرت في قلبي، ولا تزال أصواتها ترافق نبض فؤادي..

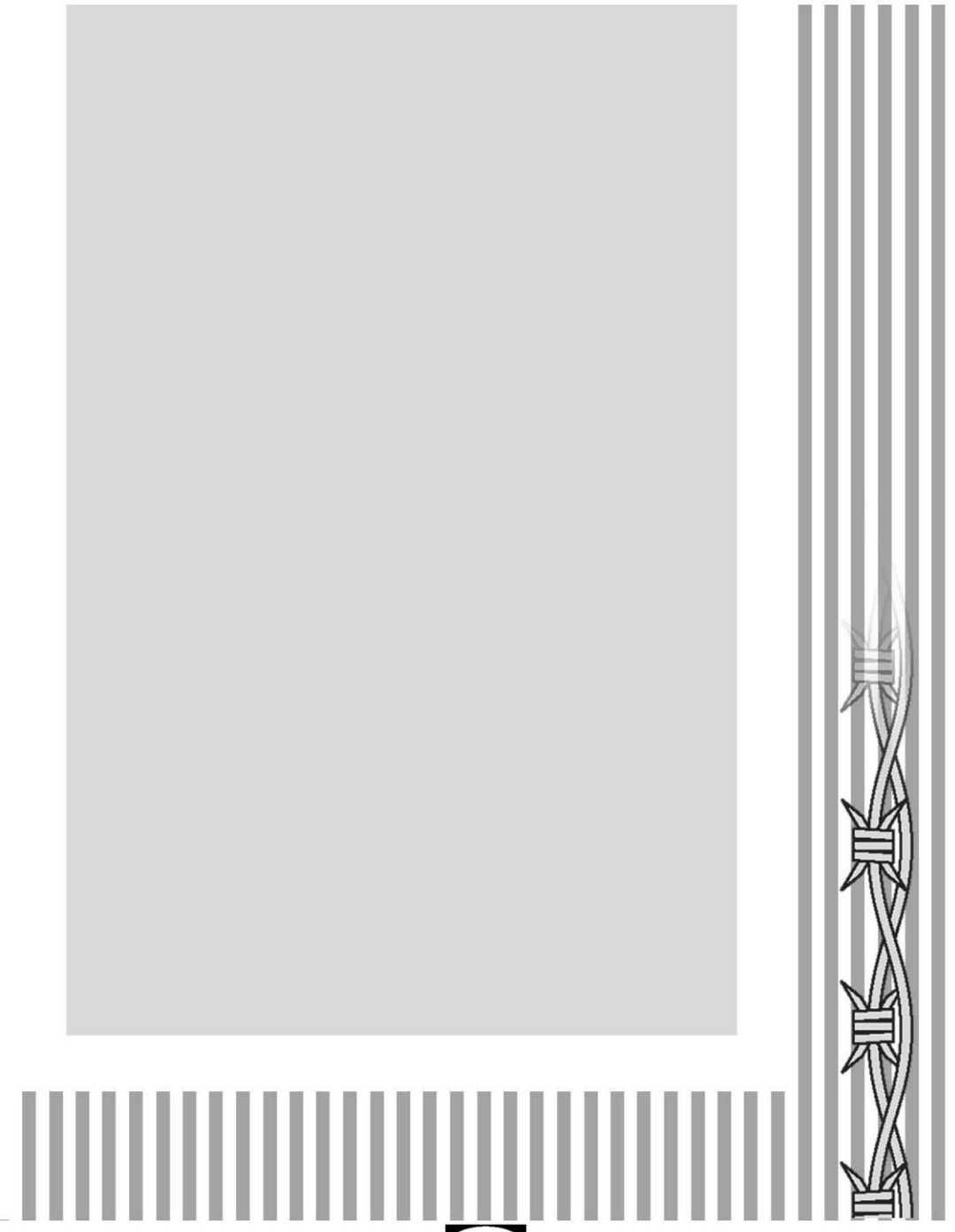

الفصل الثالث

خلف القضبان

أوصدت الشرطية الباب الحديدي بقوة، ووقفت مكاني لبرهة أتأمل الوجوه الصامتة التي تحدّق بي، ثم ما لبِثتُ أن تقدمت إحدى المعتقلات تعرّفني عن نفسها، وسرعان ما اقتربت الأخريات يسلمنّ عليّ..

وضعتُ أغراضي التي كانت عبارة عن: فراش رقيق جداً للنوم، ووسادة، وصحن طعام، في زاوية من الغرفة المظلمة، وجلست وحيدة أستجمع شتات أفكاري في خضم مشاعر متناقضة من الإحساس بالغربة والأنس في الوقت عينه.. في هذه الزنزانة المظلمة، اجتمعنا، وعلى الرغم من انتماءاتنا المذهبية والسياسية المختلفة، قبعنا تحت سقفٍ واحد من الظلم بتهمة «الوطنية »..

قرأتُ في وجوههن الغريبة عني سطور حكايتي، وعرفت في قرارة نفسي أنهن العائلة

التي أنتمي إليها.. فمن الجميل أن تشعر أن هناك من ينتمي إليك أيضاً، بوجعك.. بحزنك.. بوحدتك..

وقد تكون جراحي النازفة تحرقني، ولكني شعرت بسكون يسكن فؤادي، وهدوء ارتاحت فيه أعصابي المشدودة منذ أن دخلت إلى المعتقل..

اقتربن مني، ورحنّ يخففن عني، ويداوين أوشام التعذيب على جسدي.. هدأت في أصواتهن، ولجأت إلى أكفّهنّ الممتدة نحوي، كعصفور مبللٍ اختبأ في جذع شجرة خوفاً من المطر.. ولستُ أدري عما تحادثنا، ولكن كل ما أذكره، أنه في تلك اللحظة عشت ما بين الشرود والهدوء إلى حدٍّ من الضياع الجميل..

وبين حديث وآخر، بدأت إحدى المعتقلات بالتودّد إلي بشكل لافت، وصادف أن أهلها

يعرفون أهلي لأن قريتها مجاورة لقريتي، ما جعل دائرة الحديث تتسع في ما بيننا، وبين أسئلتها عن سبب اعتقالي، وإصرارها على معرفة التهمة الموجهة إليّ، كانت اللامبالاة في أجوبتي وبرودة موقفي تشعل غيظها..

وبينما هي تحاول استدراجي بإخباري كل ما جرى معها قبل الاعتقال وبعده، كنتُ أرد عليها بالجواب المعهود الذي حفظته مني جدران غرف التعذيب.. كنتُ أحادثها وأنظر إلى المعتقلات الأخريات فأراهن ينظرنّ إلينا بحذر، ويتهامسن بنظراتهنّ خوفاً من شيءٍ ما..

كان حديثي يطول وتلك الفتاة، وهنّ يتجاذبنه معي في محاولة لإعطائي إشارات تفضح حقيقة تلك الفتاة التي كانت مجرد «عميلة زنزانة»!

وعميلة الزنزانة، فتاة تفضحها الميزات التي

تحصل عليها مقابل وشايتها بالمعتقلات، فهي تحتفظ بالصابون، والسكاكر، وتأكل مع الشرطيات، ويسمح لها أيضاً بالخروج من الزنزانة، والعديد من الميزات الأخرى. وما عرفته أيضاً، أن مهمة عميلة الزنزانة تفوق بأهميتها عمل المحقق في غرفة التعذيب، فهي التي تستقبل المعتقلة المعذبة، الضائعة في سراديب الخيام ووحشية عذاباته، لتهدئ من روعها، وتكفكف دمعها، ولتأخذها بين ذراعيها فتصبح قريبةً جداً منها، فتعترف المعتقلة على ذلك الصدر الحنون بالأشياء التي لم تجبرها أسلاك الكهرباء والسياط على البوح بها، جاهلةً أن ذاك الصدر، سيكون باباً من أبواب جحيم العذاب بعد أن يواجهها المحقق بما نُقل إليه في التقرير.

ولكن ما كان يعرقل مهمة عميلة الغرف،

الوعي والحذر بين جميع المعتقلات في جميع الغرف، والتكاتف ضدها بصمتٍ وترقب..

وبدأت الأيام تُطوى خلف جدران معتقل الخيام، وفي تلك الغرف الغارقة برطوبة العتمة، وبالروائح النتنة، ومن بين صدى أصوات المعذبين، الصارخين ألماً، الساكتين صلابةً وبأساً، نبتت بين قلوبنا ألفة العائلة والأُخُوَّة والمحبة، حتى صرنا نفساً واحدة ويداً واحدة، نخاف على بعضنا أكثر مما نخشى على أنفسنا، وكانت علاقتنا ببعضنا كوردة جورية نبتت بين أشواك الكراهية والخيانة..

تلك الجدران كانت عالمنا، وكنا نستيقظ صباحاً كل يوم لنؤدي صلاة الصبح، ثم نقرأ الدعاء سويّاً، ونتلو القرآن.. في الساعة الثامنة نتناول الفطور الصباحي وهو عبارة عن ملعقة من «اللبنة»، وأربع حبات من الزيتون، أو بيضة

مسلوقة غالباً ما تكون فاسدة، أضف إلى ذلك كوباً من الشاي البارد الذي أطلقنا عليه اسم المشروب الغازي «بيبسي»..

بعد ذلك يبدأ عملنا في تنظيف المكاتب والغرف، وكان وقتنا يمضي بين أحاديث وخبريات، وإذا ما تحدثنا عن الماضي وذكرياتنا، تنتهي القصة بدموع تحرق المهج، وتولد في أنفسنا التمرد على واقعنا الضيّق..

وبين قضاء الصلاة، والصيام، والدعاء، نجتمع سويًّا في فراغ الزنزانة، لنحضن في قلوبنا نور الله المشع في أنفسنا، فنناجيه بما حفظت ألسنتنا ونتلمس أعتاب رحمته بصمت دموعنا.. ولم تكن تفوتنا أي مناسبة دينية، فكنا نحيي ليالي القدر المباركة في شهر رمضان المبارك، ونقوم بإفطار بعضنا على كسرات من الخبز، وأيضاً لم يفتنا إحياء شعائر عاشوراء

الحسين عليه السلام، التي كانت تعطينا الدافع للصبر والرضى بما نزل بنا.. وكنا نجمع مقاطع بعض الأدعية من بعضنا البعض، ونكتبها بالصابون على باب الغرفة لنحفظها، ثم نقوم بتحفيظها للمعتقلات في الغرف الأخرى، والآيات والسور القرآنية، وقد قمنا في أحد الأيام بسرقة سورة الدخان من قرآن عميلة الزنزانة، وحفظناها وداورناها على كل الغرف، والجميل أنّ المعتقلات المسيحيات كنّ يقرأن القرآن معنا..

بعد وقت الغداء، الذي هو عبارة عن يخنة البطاطا أو البازيلا المليئة بالدّيدان، ما اضطرنا إلى تنقيب الديدان الظاهرة على سطح مرقتها، يحق لنا بعشر دقائق نجلس خلالها في الشمس، وندخن سيجارة واحدة، ولكنهم غالباً ما يختصرون الدقائق العشر تلك،

بثلاث دقائق، وفي بعض الأحيان نبقى في زنزاناتنا لأيام من غير أن نرى الضوء خارجاً. وكان يحق لنا يوماً بعد يوم بالاستحمام، وبسخان مياه واحد يجب أن تستحم أربع وعشرون فتاة، ما جعلنا نتداور في الاستحمام حتى يصل الدور إلى الجميع.

ولما يأتي الليل، وبعد عشاء من الفول المسوس، أو مرقة من اليخنة الغارقة بالدود، نجلس لنتدفأ بأنفاس بعضنا، ونضيع في استذكار أيامنا الماضية، أو ننسج من الوهم حلماً نعيشه، لننسى مكان وجودنا، فليس هناك أروع من الوهم عندما يصبح كحصانٍ طائر يحلّق بك بعيداً عن الواقع المر..

كنا نتعامل مع بعضنا بأكثر من حدود الأُخّوة، بل إلى حدٍّ كبير حدود النفس، فنتبادل الثياب، ونعطي لبعضنا المال إذا ما وصل إلى

معتقلة مبلغ من أهلها، إن كانت إحدانا بحاجة لشراء أي شيء، على الرغم من أن أكثر الأموال والأغراض التي كان أهالينا يرسلونها لنا عبر المسؤول الأمني للقرية[1] في ميليشيا لحد، تسرقها الشرطيات اللاتي كنّ محترفات بالسرقة، حتى إنهن كن يسرقن نصف الفروج المشوي المسموح لنا بتناوله مرة في الأسبوع، ليعطين لكل ست معتقلات في زنزانة نصفه الآخر !..

وفي أحد الأيام سحبنا عبر كوة الزنزانة سلكاً دقيقاً من شريط كهرباء، جعلناه إبرة طرّزنا بها العديد من الأحاديث والرسومات التي قضينا أياماً وشهوراً ونحن نطرّزها، وكنا نأتي بالخيطان من المناشف والثياب القديمة

(١) لم يكن مسموحاً للصليب الأحمر اللبناني في تلك الفترة من الدخول إلى معتقل الخيام.

ونسحبها خيطاً فخيطاً، ونجمع حبّات الزيتون لنجعل منها سبحات صغيرة..

بعد ثلاثة أشهر من اعتقالي، زارتني والدتي في المعتقل، وكانت تلك المرة الأولى والأخيرة، وقد جلبت لي بعض الأغراض واطمأنت علي، وعرفت من خلالها أخبار أخوتي وأحوالهم، ولكنها وخلال وجودي لمدة سنوات أربع في المعتقل، كانت ترسل لي أغراضاً وثياباً كثيرة لم يصلني منها أي شيء!.

بعد تلك الزيارة لم أعد أعرف أي شيء عن أهلي، كغيري من المعتقلات، وكان العملاء يستغلون هذا الموقف ليستهزئوا بمشاعرنا، وليبينوا لنا ـ كذباً وافتراءً ـ أن أهلنا قد نسونا، وهم لا يسألون عنا ولا يهتمون لأمرنا.. ولم توصد أبواب الزنزانات الحديدية علينا فحسب، بل لطالما فتحت لتدخل معتقلة جديدة

حاملة أوجاعها وآلامها ـ فنسارع إليها لنحضنها ونخفف عنها ، وندفئها من برد وحدتها، ووحشة ساعات قضتها في غرف التعذيب، وكنا نعرف أخبار الخارج من المعتقلين الجدد، ونتناقل الأخبار عبر شبابيك الغرف، وكنا نعتمد في المعتقل على حاسة السمع لمعرفة أشياء كثيرة، وحفظنا أرقام الغرف من أزيز أبوابها وصوت مفاتيحها، ولم يثننا صراخ الشرطيات ونحن نتحادث عبر الشبابيك، وإذا ما وشت العميلة علينا وقفنا كلنا وقفة واحدة ونلنا العقاب نفسه، وكانت عميلة الزنزانة التي تتقاضى مبلغاً من المال لقاء عمالتها تعرضنا للضرب بالسياط والتعذيب مقابل قطعة من الشكوكولا!

وبعيداً عن الأجواء الأخوية التي تربط المعتقلات ببعضهن البعض، كنا نؤازر الشبان

المعتقلين في كل شيء، على الرغم من أننا لم نلتقِ بهم أبداً، فكنا إذا سمعنا صراخ معتقل جديد يتعذب سارعنا للصلاة والتضرع إلى الله أن يخفّف عنه ويتحمل العذاب.. لقد كان أكثر المواقف شجاعةً في المعتقل، عندما أعلن الأخوة المعتقلون العصيان، وكانت الانتفاضة في العام ١٩٨٩، ووقفنا جميعًا شباناً وشابات نؤازر بعضنا لتحقيق المطالب..

كان قد مرّ على وجودي في المعتقل سنتان عندما أخبرني المسؤول في المعتقل أنهم سيفرجون عني، وحدد لي نهار الخميس في ١٩٨٩/١١/٢٦، ورحت أنتظر ذاك النهار بفارغ الصبر، ولم أكن اعرف أنها مجرد كذبة كذبها عليّ، فبعد ظهر ذاك اليوم، وبينما كنا نقوم بتدخين السجائر بعد الصلاة والغداء، سمعنا ضجة كبيرة آتية من زنزانات الشباب، لقد

كانوا يضربون الأبواب الحديدية بقوة، ويصرخون «الله أكبر»، فظننا بادئ ذي بدء، أنهم يتعرضون للضرب والتعذيب، فقمنا بالتشاور السريع فيما بيننا عبر الشبابيك بعد أن أدخلونا بسرعة إلى الزنزانات، وارتأينا أن نقف إلى جانب الشباب مهما تكن مطالبهم، فرحنا نضرب بقوة على الأبواب حتى سارع المسؤولون والشرطيات إلى زنزاناتنا ليسكتونا، فهم كانوا يعرفون أن أصواتنا كانت تشجع الشبان ليزيدوا من ثورتهم، وأخبرناهم أننا نريد أن تتحقق مطالب الشباب في المعتقل، ولكنهم عاقبونا بالضرب بالسياط والمياه وتم تركيعنا لساعات، وعلا الصراخ من سجون الأخوة بعد أن قام العملاء برمي القنابل الغازية، وضرب المعتقلين بوحشية، ما أدى إلى استشهاد الأخوين «بلال السلمان» و«إبراهيم

أبو العز»، ثم تناهى إلى أسماعنا صوت أحد المعتقلين وقد بدأ بالتفاوض مع العملاء باسم أسرى الخيام..

مع استشهاد «بلال» و«إبراهيم»، خيّم جوّ من الحزن القاسي على قلوبنا، وجمعنا بعضاً من القصائد، لنقولها كمجالس عزاء حسينية عن روحيهما الطاهرة، وكنا نقول تلك المجالس لكل غرف المعتقلات عبر الشبابيك، وكان مأتمهما في قلوبنا كبيراً جداً..

كان العملاء دائماً يتعمّدون تزويدنا بالأخبار السيئة التي تؤذينا، فعندما توفي الإمام الخميني قدس سره جاؤوا قبل طلوع الفجر ليخبرونا أن «زعيمنا مات»! وعندما يستشهد أحد المقاومين يسخرون منا، ويستغلون كل الأوضاع السياسية الخارجية ليؤثروا علينا داخل المعتقل، ويوهمونا أن المقاومة مجرد كذبة

سرعان ما ستقضي عليها إسرائيل، ولكن ما كان يكذب أقوالهم أصوات العمليات التي كان يصل صداها إلى داخل المعتقل، فتعلو الزغاريد والتكبيرات، خاصةً عندما دوى في أحد الأيام صوتٌ قوي في سهل الخيام أدى إلى قتل العديد من الصهاينة، وذلك عندما فجَّر الاستشهادي الشيخ أسعد برو نفسه بقافلة إسرائيلية.. وأيضاً كان لعملية الحر العاملي دويّ صارخ خلف جدران المعتقل، و تلك العمليات هي رسالة محبة من المقاومة لنا، وإنهم على العهد باقون، يحفظون دماء من استشهد منهم، جراح من جُرِحَ، وقيدنا نحن الأسرى..

ومن بين الصفحات السوداء التي توالت في حياتي داخل المعتقل، يشع وجه «زينب شعيتو» تلك الفتاة التي تبلغ الأربعين من العمر، وتبصر

بعين واحدة، وقد اعتقلوها من الحقل عندما كانت تساعد أهلها بجنيّ ما زرعت أيديهم، و أتوا بها وأختها إلى المعتقل حيث نالتا من التعذيب الشديد الحظ الوافر.. ولم تكن زينب تلك الفتاة المهتمة بالحياة الاجتماعية والسياسية، فهي لا تعرف من حدود الدنيا سوى منزلها والحقل في القرية، ولكنهم اعتقلوها إثر استشهاد ابن شقيقتها في المقاومة الإسلامية.

قضت زينب حوالي الشهر في المعتقل، وكان شهر رمضان المبارك، وأطلقوا سراحها بعد أن هددوها باعتقالها بعد العيد مباشرةً، وفي صبيحة عيد الفطر، أتى أحد العملاء ليخبرنا أن «زينب» انتحرت في بركة قريتها «الطيري»، وقد وجدوها في الصباح الباكر جثة هامدة تطفو على وجه المياه بثياب النوم، بعد أن

فضلّت الموت على أن تعتقل من جديد.. قضينا ذلك اليوم بين بكاءٍ ونحيب، وقد عرفت بعد خروجي من المعتقل، أن زينب لم تنتحر كما أُخبرنا في المعتقل، بل قتلها العميل المقبور حسين عبد النبي بإغراقها في البركة..

بعد زينب، تأتي صورة «رفيقة»[1]، التي قضيت معها أياماً ملوّنة بالمعاناة والقهر؛ كانت أخبار أهلي قد انقطعت عني نهائياً، وقد مرّ على وجودي في المعتقل حوالي سنتين ونصف، فاستبدت بي مشاعر الإحباط والقلق والتوتر، وقد استغل العملاء، بخبثهم، نقاط ضعفنا بشوقنا إلى أهلنا وإيهامنا بأنهم لا يسألون عنا ولا يرسلون لنا أي شيء، فارتأيت أنه قد يفيدني الجلوس منفردةً ليومين، وطلبت إلى

(١) حفاظاً على حُرمة الأخت تمّ استبدال اسمها الحقيقي بـ«رفيقة»، لذا اقتضى التنويه.

المسؤول أن ينقلني إلى زنزانة إفرادية، وبين رفضه وإصراري وافق بعد أن عرف أن طلبي بناءً لحاجتي إلى الجلوس مع نفسي وليس إثر اشكال مع إحدى المعتقلات.

نقلتُ أغراضي إلى الزنزانة الإفرادية، مهيّئة نفسي لساعات صفاء، أفكر خلالها بأشياء يتقاذفها التناقض ويشتت الحل بين الحس والمنطق، فمثلاً كنت على يقين بأن أهلي لم ينسوني، وأنهم يبعثون لي أغراضاً يقوم العملاء بسرقتها..

ولكن الشوق المتأجج في داخلي لرؤيتهم كان يحرّك فيّ التمرد على الواقع وأسلاكه، وأشعر بعتب عليهم يكسر خاطري، وهم الذين يحبونني كما أحبهم، ويذكرونني كما أذكرهم، ويعيشون معي في زوايا المعتقل بذكرياتهم الجميلة، فطالما كنتُ أمتطي صهوة الخيال بحثاً

عن مكان أجد فيه لحظات من الراحة وإن كانت وهمية، وأرسم واقعاً كما يحلو لي، متناسية أن سطور الحقيقة هي التي تفرض نفسها علينا ولسنا نحن من يكتبها..

وبين خيالٍ وذكريات، تمتلكني أحاسيس السعادة التي تخفف من وطأة الحزن الساكن فيَّ، فكنت إذا ما أسندت رأسي إلى الحائط الجامد رحت أرسم بمخيلتي دروب القرية الحجرية المتشعبة وسكون قادومياتها وبيوتها الحجرية القديمة.. ألمحها في الربيع، وقد أزهر اللوز على أفنان أشجارها فغدت عروساً بيضاء تبهر العيون، وفي الصيف تتحلى بذهب السنابل وبريق المناجل..

ما أروع القرية! وما أجمل الاستيقاظ قبل طلوع الفجر لنرافق الندى إلى الحقل، فنقطف أوراق التبغ والكرى يتراقص على أجفاننا!

وعند هدوء العصر، أغفو على المصطبة أمام بيتنا متدثرة بالسكينة والهناء..

وفي لحظاتٍ، أقوم لأمسك قضبان الكوة الصغيرة في الزنزانة عساني أقتلعها لأخرج منها فراشة صغيرة تنتقل من زهرة إلى زهرة، أو طيراً لا يملّ القفز من غصنٍ إلى غصن.. ولكن ليس كل ما يحمله الحلم جميلاً، فأحياناً أخبئ وجهي بكفي محاولةً أن أتذكر وجه أمي! وجوه اخوتي ! لكأنها تقاسيم نفيت من ذاكرتي كما نفيت إلى هذا المعتقل.. أجل فقد نسيت وجه الحبيبة، وهل هناك أصعب من أن تجد الغباش حدود الوجوه التي تحب !.. أمي، أخوتي، صور أسدل النسيان عليها ستاراً من عدم الوضوح، ففتح جرحاً في القلب بقي ينزف حتى موعد اللقاء..

وبين شتاتٍ وآخر، فُتح الباب الحديدي،

لتدخل منه ضيفة تحمل أوجاعها بقعاً زرقاء على جسدها الطري، كانت تبكي وتئن من الألم، فهرعت إليها لأهدئ من روعها، ولأمسح مكان أوجاعها بلطف يدي..

نظرتُ إلى عينيها الغارقتين بالدموع، الناطقتين بالخوف والهلع والضياع، وما أثار دهشتي، أنها كانت تعاني من شلل نصفي يجعلها عاجزة حتى عن خدمة نفسها بالشكل المطلوب..

أخذتها بين ذراعي أخفف عنها، وعرفت اسمها، ولم تكن تعرف لماذا اعتقلوها، بعد أن عرّضوها لأبشع أنواع العذاب، ومن خلال حديثها معي، استنبطت أنها فتاة مسكينة لا تفقه من أمور الدنيا شيئاً..

وهكذا تحولت تلك الفتاة إلى رفيقة وحدتي في الزنزانة التي أملت القضاء فيها فترة

تخفف عني، ولكنها جاءت حاملة في جعبتها الكثير من المفاجآت.. والمعاناة..

نشأت بيني وبينها صداقة في فترة قصيرة جداً، وكنتُ أقوم بالاعتناء بها كالأم التي تعتني بولدها، فأغسّل لها، وأسرح شعرها، وأبدّل لها ثيابها وأغسلها.. وكثيراً ما كانت تحدثني وأنا أسرِّح لها شعرها عن شاب في قريتها كان يحبها، وعندما يزورها كان يجلب لها الكثير من الهدايا الجميلة، ولكنه غادر القرية إلى غير رجعة، ولم تعد تراه..

كانت تحدثني عن كل شيء في حياتها، وتبكي عندما تقول لي إن أهلها لا يحبونها لأنها عاجزة، فكنتُ أسرح في صفاء وجهها، وحزن صوتها، وأكثر ما كان يقتلني، ذلك الضياع في عينيها الذي لم أعرف له قرار..

إلى أن كان منتصف إحدى الليالي، والأضواء

الكاشفة تمزق بين الفينة والأخرى ظلام الليل الدامس، استيقظت على صوت مرعب بدأ يرتفع تدريجيّاً خلفي. بداية الأمر لم أجرؤ على أن ألتفت، ولكني خفت على «رفيقة»، فنظرت خلفي لأطمئن عليها، وما إن وقعت عيناي عليها، حتى هرعت كالمجنونة إلى الباب الحديدي.

فأيقظ صراخي كلَّ مَنْ في المعتقل. ورحت أضرب الباب بيديّ ورجليّ خوفاً من المنظر الذي رأيته، فقد كان وجهها مرعباً، عيناها شاخصتان وتشعان ببريق أيبس الحياة في فؤادي، وعلى فمها تطفو رغوة بيضاء راحت تسيل على ثيابها.. وما إن فتحت الشرطيات الباب، حتى قفزت خارج الغرفة باكية وأنا اطلب أن يساعدوها، وراحت المعتقلات زميلاتي يسألنني عبر الشبابيك عما حصل

معي، وأنا لا أملك جواباً، سوى صراخي الذي علا طلباً للمساعدة..

لم تجرؤ أي شرطية على الدخول إلى الزنزانة، وهي ما تزال تصدر صوتاً مرعباً، وسرعان ما وصل الممرض الذي قام بإعطائها حقنة مهدئة أعادتها تدريجياً إلى طبيعتها، ونامت، ولم يكن في المعتقل سوى دواء واحد لجميع الأمراض، وهو «مسكن الألم»!. قال لي الممرض إنها تعاني من مشكلة فقدان وعي شبه كامل، وتقوم خلال تلك الفترة بأشياء غير طبيعية تنساها بمجرد أن يزول عنها العارض، وطمأنني إلى أنني أستطيع أن أعود إلى الغرفة بلا خوف..

أوصدوا الباب الحديدي، وجلستُ بالقرب منها أتأمل وجهها الملائكي وقد غطاه السكون، وانحدرت من عيني دمعة شفقة عليها.. الآن

عرفت أنها لم تكن تمثّل كما يعتقد ضباط العملاء، وأنها مريضة فعلاً، فقد أخبرتني إحدى السجينات ونحن نقوم بتنظيف المكاتب صباح أحد الأيام، أن زميلتي في الغرفة قد ألقي القبض عليها وهي تسير بالقرب من موقع الشومرية، فظنّ اللحديون أنها تقوم باستكشاف المكان لصالح المقاومة، ولكنها كانت في غيبوبة تامة، وكانت تسير في البراري دون أن تعرف وجهتها.. وعلى الرغم من عجزها فقد قاموا بتعذيبها أشد أنواع العذاب، ولم يرحموا ضعفها، ومرضها..

في صباح اليوم التالي، استيقظت وكأن شيئاً لم يكن، أخبرتها عما جرى في الليل، فاعتذرت إليّ لأنها لم تخبرني بمرضها، فطيبت خاطرها ووعدتها أن اعتني بها، ولكن بعد يومين تقريباً، وبينما كنا نقوم بتنظيف المكاتب صباحاً مع

معتقلات أخريات، وقعت بيننا وأصبحت كَلَوْح من الخشب، جاء الممرض وساعدها، وسرعان ما أطلقوا سراحها.. عرفت حينما خرجت من المعتقل، أنّ أهلها يحبونها ويعتنون بها، وليس كما أخبرتني، وهي الآن أصبحت في مستشفى للعجزة لأن حالتها تتطلب مراقبة طبية دقيقة ومستمرة..

لقد كان صفاؤها، يعكس بوضوح وحشية اليهود وعملائهم، المشرفين المباشرين على معتقل الخيام.

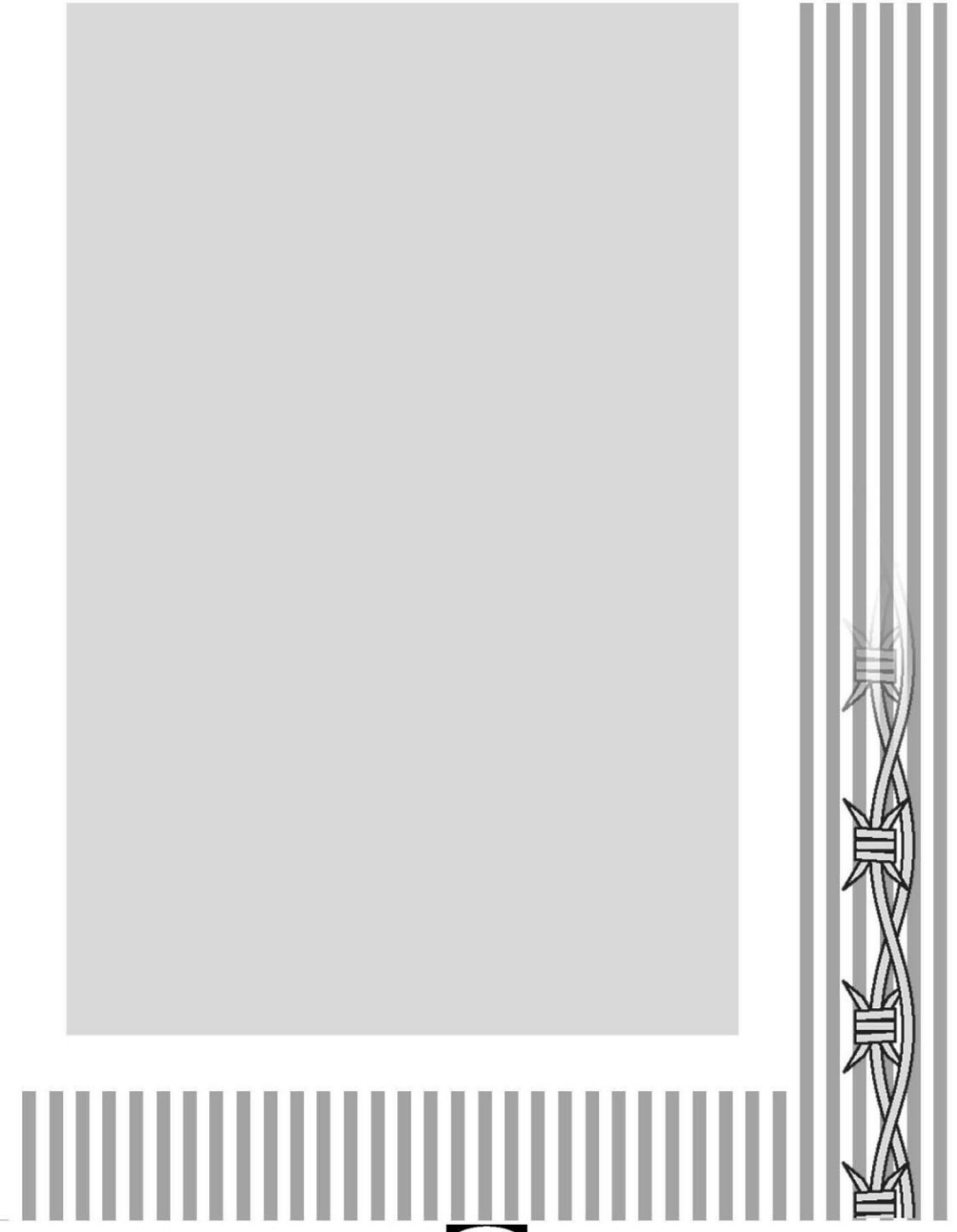

الفصل الرابع

بوابة العبور

سنواتٌ أربع. فصول تطويها فصول، وعذابٌ يولد من عذاب.. نهار يتآكله الخوف، وليل يضيع بين الماضي ودموعه..

سواد غرفة لا تعرف معنى الشمس، ووجوهٌ عيونُها محدّقة بالفراغ.. كل مقلة مبحرة في عالم غير العالم، تبحث في حنايا الذاكرة عمّا يدفئها من برد الغربة والوحشة..

سنواتٌ أربع، في هذه الغرفة الصغيرة الباردة.. التجئ إلى نفس الحائط: أبكي، أتدفأ، أسند رأسي ضاحكة، وتشخص عيناي عليه أرقة.. نسيتُ أن هنالك شيئاً ما بعد هذا الجدار.. نسيت الشمس، الهواء، القمر والنجوم.. كأني عمياء عن كل ما هو خارج حدود هذه الغرفة..

انتظرت طويلاً أن اسمع صوت المفتاح يدور في ثقب الباب الحديدي الصدئ، علّني أسمع

صوت الشرطية مرافقاً أزيزه، لتبشرني بـ «الإفراج».. لكنّ الأيام الطويلة، أخذت معها الانتظار واحتراق ساعاته، ولم يعد يعنيني أي شيء حتى عدّ الأيام..

هذا المكان، صار جزءًا مني.. مرآة لدهاليز نفسي، اتخذت الأشياء هنا، معانيها المضادة، فلم أرَ الأصفاد آلة لتكبيل الأيدي، ولا السياط سطوراً من الألم تُكتب على الظهور، حتى صقيع الشتاء والوقوف ساعاتٍ طِوالاً تحت الثلج، أخذا بُعداً من الدفء ! لقد كانت الأصفاد نافذةً للحرية، كنتُ أشعر أن فؤادي يطير في عالم سماؤه رحبة، وأحس أن الكون كلّه ضيّق أمام جناحيَّ المتمردين على كل شيء محدود.

كنتُ أكسر معاني التكبيل بالحديد، بمجرّد أن أزيد يديّ التصاقاً ببعضهما، لأشد عليهما

تأكيداً لنفسي على العهد بالبقاء داخل القضية..

كنتُ أؤازر نفسي، وأنا أسير في السراديب المظلمة مكبلة، معصوبة العينين، شامخة الرأس:

إن أروع الانتصارات التي تخلّد، انتصار الحقيقة حتى لو كانت معلّقة على المقصلة..

وإن أفضح الهزائم، هزائم أنفسٍ تشرب بكؤوس الذل دم الأبرياء، وتصفق لنفسها بانتصار يتهاوى مع سقوط الأقنعة..

كنتُ أتلقى وجع السياطِ بالصراخ والدموع، ولكني أيضاً حفظتُ أسطرها في كل مسامات جلدي، وعرفتُ منها أن حدود الوجع الحقيقي يبدأ دائماً بعد الجسد..

وإن كان البرد يحمل عدة وجوه، منها الغربة والمنفى، فقد علّمني الثلج، أن الصقيع يبدأ

دائمـاً من القلب، وأن الشـمس أبداً لا تهبُ الدفء لمن لا يملك قلباً، يشعّ منه نور الإيمان..

معتقل الخيام، بعد سنوات أربع، صار عمري المختزل، ومكاني الضائع..

وفي يوم كانت ساعاته تتسابقُ بملل يسكن الثواني، فُتِّح الباب الحديدي على وجوهنا الغارقة بعتمة الغرفة، ليمتد نور ضئيل من الخارج إلينا..

وقفت الشرطية لبرهة مكانها ونحن نحدّق فيها منتظرات آخر القرارات الصادرة.. لكنها طلبت إليّ أن أحزم أغراضي.. اقتربت منها بهدوء قائلة لها: لا أريد أن أنتقل إلى غرفة أخرى، فأنا مرتاحة وزميلاتي..

لكنها أمرتني بلؤم أن أحزم أغراضي.. فما كان مني إلاّ أن فعلت ما طلبته، وتبعتها إلى خارج الغرفة..

كانت تسير أمامي، وفجأة استدارت قائلة:

ـ مبارك يا مريم، «إفراج».

ـ إفراج؟!! لي أنا..

ـ نعم، مبارك..

لم أصدّق للوهلة الأولى، فلقد وعدني المسؤول الأمني مرات عدة بالإفراج ولم يصدق، ولكن، منذ الصباح ونحن نشعر أن هناك حركة غريبة في زنازين الشبان، هذا يعني، أنه من الممكن أن يكون هذا الخبر صحيحاً..

أدخلتني الشرطية إلى غرفة تواجدت فيها أربع معتقلات أخريات، وطلبت إلينا أن ننتظرها، حدّقت بالمكان.. هذا المكان الذي أخذ من عمري أربع سنوات..

وركضت نحو الباب، تعلّقت بشباك كوته الصغيرة وصرخت للزنزانات الأخرى «إفراج»..

«سأخرج من هذا المنفى إلى الدنيا.. سأعود

إلى البيت.. إلى أهلي.. إلى الحياة..»..

ولكن، أنتم ستبقون هنا، شبّاناً وشابات.. أيُّ فرحةٍ هذه التي مخاضها الفراق!

ويبس الكلام على شفتي، صار البكاء، حديث من لا يملك الكلمات...

بدأت المعتقلات يهنئنني على خروجي من السجن، ووعدتهم بدوري بزيارة أهاليهن بقدر ما أستطيع.. ومن خلف الأبواب، تبادلنا التحايا والقبلات والدعاء...

وانتظرت من جديد، صدى خطوات الشرطية التي تأخرت بالقدوم بسبب بعض العوائق في زنزانات الشباب..

وأخيراً جاءت.. مشيتُ خلفها وأنا أحمل الفراش الرقيق، والوسادة والصحن، سلّمتها في مكتب الأمانات، واستلمت حاجياتي التي سُلِبَت مني إثر اعتقالي. وبينما كنتُ أقوم

بتدوين إمضائي على ورقة الخروج، «أوصاني» عميل أن لا أعيد ما اقترفت، لأنهم إذا اعتقلوني مرةً ثانية فالحكم سيكون مؤبداً..

وبدأت بداية نهاية كابوس اسمه «معتقل الخيام»... توجهتُ نحو الباب، وفي نفسي تضجُ أحاسيس ما عدت قادرة على حملها في فؤادي... صرختُ بصمتٍ وأنا أتنشق الهواء العليل الذي يلفح وجهي «يا الله، ما أروع حدود السماء.."

عبرتُ البوابة، وكانت سيارات الصليب الأحمر متوقفة في الباحة الكبيرة، وجمع من المعتقلين المفرج عنهم يصعدون السيارات.. وقفتُ لبرهة مكاني، نظرت إلى الكوات الصغيرة لأرى الأكف ملوحة بالوداع.. رفعت كفي لأقول لهم «وداعاً»، ولكني أبصرت وجهي خلف عتمة نافذة زنزانتي.. عرفتُ حينها، أني

تاركة بعضاً مني هنا، وأني آخذة الكثير من الأشياء معي..

عندما سارت السيارة في شوارع الخيام، راح الناس يرشون علينا الأرز والورود، وأنا ألملم جرحاً جديداً في قلبي.. لقد انسلخت عن واقعٍ أَلِفتُه، ومن عائلةٍ انتميت إليها في ليالٍ منً الغربة، لأتوجه إلى مكاني الطبيعي، مكان، من الصعب أن أنتمي إليه بسهولة...

وصلتُ قريتي، كانت النوافذ مشرّعة، والناس في الطرقات:»هل غادرهم الخوف يا ترى، ليقفوا حاملين في أيديهم الأرز والورد يرشونه علينا؟« .. كانت أمي هي الوحيدة التي بقيت في البيت، وجميع أخوتي في بيروت، ومنذ الصباح، تسأل أهل القرية إذا ما سمع أحد اسمي من بين المفرج عنهم في أخبار المذياع، إلى أن بشّروها بقدومي..

وصلتُ إلى بيتنا، رأيت الناس، يجتمعون لاستقبالي، كما اجتمعوا يوماً لوداع «والدي «، لم أعرف أحداً منهم، مشيتُ بضياعٍ نحو الباب، والكل يسلّم علي ويهنئني بالسلامةً.. واستقرت عيناي على موضع الرصاصتين اللتين أودتا بحياة والدي.. وأطلت أمي من بين الجموع مزغردةً.. «عادت مريم».. ارتميت بين ذراعيها لأحدّ بحنانها شتات نفسي، ولأستقر هنيهةً على ضفاف ساعديها من تعب السير في دروب محفوفة بالخوف والوحدة وشتات العودة..

لقد عدتُ، بعد سنوات أربع ؛ ولستُ أدري لماذا، كلما حلمت بهذه اللحظة وأنا في غياهب المعتقل، يراودني وجه والدي ضاحكاً يقول لي «الحمد لله على السلامة يا حبيبة قلبي»، وأشعر به يأخذني في دنيا غير الدنيا وأنا أسند رأسي إلى صدره.. ولكن، عند وصولي،

رأيت أثر الرصاصتين، اللتين اخترقتا فؤادي لتقتلاني من جديد.. «الحقيقة التي نسيتها في المعتقل، أن والدي قد مات !»..

ركضتُ في دروب القرية المتشعّبة، قبل أن أدخل البيت، لأصل إلى مدفن القرية، ولأكسر بدموعي هدوء ساكنيه.. جلستُ بالقرب من قبر أبي، مسحت عنه غبار البعد: «هل فعلاً مرت سنوات أربع يا أبا طالب؟»، وضعتُ خدي على البلاط البارد، لأغسله بدموع الشوق، ولأعبر المكانين والزمانين، بمشهد رائع من مشاهد الالتصاق الروحي، وليصبح شعاع الشمس يد «أبو طالب» تمسح رأسي..

كان شهر أيلول بارداً بعض الشيء، وأمي المنهمكة باستقبال الضيوف المهنّئين بخروجي من المعتقل، غارقة ببحر من الفرحة، وبين فينةٍ وأخرى، تقبّلني وتتحسسني، لتصدّق أنني هنا.

كنتُ أدور في البيت أتفقد الزمان الذي مضى.. و أتوجه إلى الباحة الخارجية لأجلس على المصطبة التي طالما قضيتُ فترات العصر أنا وصديقاتي نشرب الشاي ونتحادث بأمور شتّى.. الآن، لم أعد أعرف عن أي أمور أتحدث، فقد تغيرت أحوال البلدة والبلد برمّتها.. وأسند رأسي أستذكر رفيقاتي في المعتقل، وأشتاق إليهن وإلى محادثتهن، هنالك أحاديث وأحلام كثيرة تجمعني بهنَّ، فلا يعرف الغياب إلا من يعانيه !

ومن بين المهنئين والزائرين، كنتُ أنتظر قدوم أختي «خديجة» من بيروت، وبينما أنا أرتب المنزل، دخلت البيت راكضةً، تقدمتُ منها وسلّمت عليها سلاماً عادياً ظنّاً منّي أنها إحدى بنات الضيعة، فاقتربت مني وحضنتني قائلة وهي تبكي: «يا حبيبتي يا أختي»، نظرتُ إلى

وجهها، لقد كانت هي «خديجة»، وقعتُ أرضاً من شدة التأثر، ورحنا نبكي بكاءً ضجت به جدران البيت..

- لقد كبرتِ كثيراً يا خديجة؟!

- إنها سنوات أربع..

يا الله، كل شيء تغيّر، مرّ الزمان عليهم، فيما كنت أنا خارج الزمان، وها هي خديجة أصبحت شابة بعد أن تركتها فتاةً صغيرة.. أي مكانٍ هذا الذي جئتُ إليه؟ زائرة الماضي أنا، أخطو خطوتي الأولى في دروب الحاضر، كأن الزمان ليس زماني !

بعد مرور حوالي أسبوعين على خروجي من المعتقل، بدأت أتحضّر للخروج من الشريط المحتل إلى بيروت، لأن حالتي الصحية كانت متدهورة، وأثناء محاولتي للحصول على «تصريح»، حاول العملاء منعي بحجة أنه

باستطاعي العلاج في مستشفى مرجعيون، ولكني أصررت على المعالجة في بيروت، وهكذا حزمت وأمي وأختي كل أغراضنا، لأخرج من القرية التي عشتُ فيها كل عمري، ما عدا أربع سنوات، كنتُ خلالها أدفع ثمن حبي لها في دهاليز معتقل الخيام، وتوجهت السيارة بنا إلى المعبر، حيث سلّمت تأشيرة خروجي الشريط المحتل، لتكون خطواتي الأخيرة في تلك البقعة من الأرض..

وصلتُ إلى بيروت والتقيت بأخوتي، وكان الغائب الوحيد عن هذا الاستقبال، أخي الشيخ عليّاً، الذي لم يكن على علم بخروجي من الشريط، فقمتُ منذ الصباح الباكر وأخوتي، وتوجّهنا إلى منزله في الجنوب، ولما وصلنا كان يقوم بإعطاء دروس لطلاب العلم، عندما فتح لنا الباب ورآني، لم يقل أي شيء، فقط أخذني

بين ذراعيه وضج صوته بالبكاء، ما جعل طلاب العلم يسارعون ليروا ماذا حصل..

عدتُ بعد غياب أربع سنوات لأعيش بين أهلي، ولكن يبقى السؤال، هل فعلاً أنّ الذي أعيشه عودةً، وما يزال الكثير من الشبان والشابات مرتهنين في معتقل الخيام؟

هل انتهى كابوس المعتقل، وما أزال أحيا عذاباته وأشرب مراراته؟! هي ليلة من ليالي الذكريات، أبحرتُ في يمّ الماضي وأنا أجذف بمجذاف الحاضر.. لستُ سوى انعكاس يحمل في الصورة والظل عذابات «معتقل الخيام»...

ألقيتُ برأسي على الوسادة، وكان الفجرُ قد بدأ يمزّق بأصابعه النحيلة سواد الليل، وما هي سوى لحظات، حتى صدح المؤذن «الله أكبر»...

... إذن لقد بدأ نهار جديد!

انتهت بحمد الله

٢٠٠٠/١/٣١

- **القصة:** سراديب الوجع.
- **الكاتبة:** نسرين إسماعيل إدريس.
- **الدرجة:** نالت قصة الاسيرة مريم محمد نصّار، الجائزة الثانية في المسابقة التي نظمتها الوحدة الثقافية المركزية في حزب الله لأجمل قصة أسير في معتقلات العدو الصهيوني.
- **الناشر:** جمعية المعارف الإسلامية الثقافية.
- **الطبعة:** الاولى ـ ٢٠٠١م.